الفصل الثاني

الطاغية.. في صورة السيد

«نظرية أرسطو»
«يتمثل الطغيان بمعناه الدقيق في الطغيان الشرقي، حيث نجد لدى الشعوب الآسيوية - على خلاف الشعوب الأوروبية - طبيعة العبيد، وهي لهذا تتحمل حكم الطغاة بغير شكوى أو تذمر..!»
أرسطو: «السياسة» 1285 - أ

أولاً: نشأة الدولة

ربما كان أرسطو أول فيلسوف يأخذ، صراحة، بنظرية التطور العائلي في تفسير نشأة الدولة، فهو يذهب إلى أن الدولة ظهرت نتيجة لتطور تاريخي من الأسرة التي هي النواة الأولى في بناء المجتمع. وقد نشأت الأسرة نتيجة للحاجات الضرورية التي يشعر بها المرء، وأهمها، في رأيه، الحاجة إلى التناسل لبقاء النوع «فهناك دافع يجعل كل موجود يترك خلفه موجودًا آخر يشبهه في طبيعته»[1]. فضلاً عن الحاجة إلى الطعام والمسكن والملبس.. إلخ،

(1) Aristotle: political 1252 - A - The Complete Works of Aristotle Vol 2, p. 986 - 7.

مما يعجـز الفرد الواحد عن القيام به على نحو ما أشـار أفلاطون من قبل[1]. وهكذا كانت الأسرة أسبق الجماعات إلى الظهور، إذ الأصل أن يجتمع اثنان لا غنى للواحد منهما عن الآخر، هما الرجل والمرأة، لإنجاب النسـل، ولا يتم تكوين الأسرة بطريقة متعمدة، فارتباط الذكر والأنثى موجود عند الحيوان بل والنبات أيضًا، وذلك - كما سـبق أن ذكرنا - لوجود الدافع الطبيعي الذي يدفع الموجود أن يخلف بعده موجودًا على صورته![2].

ويظل الأفراد يعيشـون في أسر منعزلة ماداموا لا يشعرون بالحاجة إلى إشـباع رغبات جديدة أكثر من الحاجـات اليومية، فالأسرة كفيلة بإشـباع الحاجـات الضرورية، فـإذا ظهرت حاجـات أو رغبات أخـرى مثل حماية الأفـراد داخل الأسرة مـن الهجمات التي تشـنها الأسر الأخـرى، أو خطر الحيوانات المفترسة، فإن الحاجة تصبح ماسة لتجمع الأسر واتحادها في مجتمع أعلى وهو القرية: التي يصفها أرسطو بأنها «المستعمرة الطبيعية للأسرة» لأن الأفـراد الذين يعمرونها «قد رضعـوا من لبن واحد للأبنـاء وأبناء الأبناء»، وتلك هي ثانية مراحل الاجتماع[3].

أما المرحلـة الثالثة، بعد الأسرة والقرية، فهـي اجتماع عدة قرى لتتكون منهـا المدينة أو الدولـة، وهي أرقى الجماعات البشرية لأنها تسـتطيع أن تكفل نفسها بنفسـها، وتضمن للأفراد حياة سعيدة، فالسياسـة عند أرسطو «هي علم السـعادة الاجتماعية»، كما أن «الأخلاق» هي علم السـعادة الفردية. ووظيفة الدولة أن تحقق أعظم قدر من السـعادة لأكبر عدد من المواطنين. وهكذا يتبين

(1) plato: Repuvlic 369 - d.

(2) Aristotle: op. Cit.

(3) Ibid.

لنا أن الدولة هي تطور طبيعي من الأسرة والقرية، غير أن التطور هنا لا يقتصر على «الكم» أو عدد السكان، بل يشمل «الكيف» أيضًا، فالصفة المميزة للدولة هـي أنها على الرغم من أنها توفر الظروف اللازمـة للحاجات الضرورية (التي كانت تقوم بها الأسرة)، فإنها تستمر في تحقيق حماية الأفراد في الداخل والخارج (وهو ما كانت تفعله وحدة الأسر في القرية) ثم تسـير نحو غاية أعلى وتشـبع جوانـب عليا في الإنسـان حـين توفر له الحيـاة الفاضلة في مجتمع أكـثر تمدينًا، وأقرب إلى الطبيعة الحقة للإنسـان، صحيح أن الإنسـان بطبيعته حيوان سياسي «فهـو المخلوق الوحيد الـذي يميل إلى الحياة في مدينة، ويخضع نفسـه للقوانين، لكنـه أيضًا المخلوق الوحيد الـذي ينتج العلم، والفـن، والدين، وجميع مظاهر الحضارة. وهي أمور تدل على كمال التطور البشري، ولا يستطيع إنسان تحقيقها إلا في مجتمـع المدينـة أو الدولة. ومن يسـتطيع الحياة خارج المدينـة، وليس به حاجة لأنه مكتف بنفسه بالفعل: إما أن يكون حيوانًا أو إلهًا..!»[1].

وهكـذا نجـد أن الدولة هـي الهدف النهـائي للاجتماع البـشري، وإن جـاءت متأخرة مـن حيث الزمـن، إلا أن لهـا الأولوية لأنها غايـة المراحل السـابقة: «لما كانت الدولـة إتمامًا لتجمعات توجد بالطبيعـة، فإن كل دولة إنما توجد بالطبيعة كذلك. أعني أن لها الكيف نفسه الذي للجماعات الأولى التي نشـأت عنها، إنها الغايـة أو القمة التي تتحرك نحوهـا هذه الجماعات. و«طبيعة» الأشـياء تكمـن في غايتها أو قمتهـا، لأن كل شيء عندما يكتمل تطوره، فإننا نسـميه بطبيعة هذا الشيء، سواء أكان ذلك بالنسبة للإنسان أو الحصان أو الأسرة[2].

(1) Ibid 1253 - A.

(2) Aristotle: politics 1253 Idia B.

وهكـذا تكـون الدولـة طبيعية لا لأنها تطـورت من تجمعـات طبيعية فحسـب، بل لأنهـا طبيعية في ذاتها أيضًـا بوصفها غاية تطور الإنسـان. ولما كانت الطبيعة لا تفعل شـيئًا باطلًا، فإن الغاية أو العلة الغائبة هي الأفضل، والاكتفـاء الـذاتي، وهـو الهدف الـذي تريد الدولـة أن تحققه هـو الغاية، وبالتالي هو الأفضل، وبنـاءً على ذلك فإن الدولة تحقق الأفضل، وهي من ثم طبيعية، ما دامت الطبيعة تستهدف الأفضل دائمًا[1].

ثانيا: السلطة

إذا أردنا أن ندرس السلطة في الدولة، كان علينا أن نتبع المنهج الأرسطي في التحليـل ورد المركب إلى البسـيط. فالدولة تتألف من مجموعة من الأسر، وعلينـا أن نبحث السـلطة في الأسرة أولًا قبل أن نتناولهـا في الدولة: هناك في المنزل ثلاث علاقات تمثل ثلاث سـلطات «أول عناصر المنزل وأبسـطها هي العلاقة بين السيد والعبد، ثم الرابطة بين الزوج والزوجة، وأخيرًا بين الأب وأطفالـه، ومن ثم فإن علينـا أن ندرس كل علاقة من هذه العلاقات الثلاث، فاحصين طبيعتها والخصائص التي ينبغي أن تكون لها»[2].

هناك من يخلط بين هذه السلطات، فيعتقد أن العلاقة بين السيد والعبد، وسـلطة الزوج على زوجته، وسـلطة الأب على أطفاله هـي كلها من طبيعة واحدة، ثم يربطون بينها وبين سلطة السياسي أو رجل الدولة، وكذلك الملك في مملكتـه[3]. ويذهبـون إلى أن الاختلاف بينها، ليـس في النوع، بل في عدد

(1) Idia, 1253 - B.

(2) Aristotle: politics, 1953 - 13 (The Complete Vol, ll, p. 1988).

(3) يعتقد أرسطو أن هذا هو رأي أفلاطون، انظر تعليق أرنست باركر في ترجمته لكتاب=

الأشـخاص الذيـن يتعامل معهم[1]. فمـن تعامل مع قلة من الأشـخاص فهو «سـيد»، ومن تعامـل مع عدد أكبر فهو «رب المنـزل»، ومن تعامل مع عدد أكبر فهو السياسي أو الملك[2]. ومثل هذه النظرة تلغي تمامًا التفرقة بين «المنزل الكبـير»، و«الدولة الصغيرة»!. وهـي نظرية لا يمكن أن تكون صحيحة إذ إن بـين هؤلاء الأشـخاص فروقًا جوهريـة[3]. ومعنى ذلـك أن الدولة تتألف مـن أنواع مختلفة مـن الناس بينهم بالضرورة اختلافـات كبيرة في القدرات، وهـو اختلاف مهم، أنه يمكنهم من أن يكمل بعضهم بعضًا، لكي يبلغوا حياة أكمل وأفضل من حياة القرى المنعزلة والمتصلة.. باختصار: الدولة هي اتحاد حقيقي بين عناصر مختلفة في النوع[4].

أولاً: علاقة السيد والعبد:

يعتقد أرسـطو أن هناك أناسًـا مهيئين بطبيعتهم لأن يكونوا عبيدًا، ذلك لأن التفرقـة بين الأعـلى والأدنى موجودة في الطبيعة وفي جميع الأشـياء: بين النفس والبدن، فالنفس أعلى من البدن، وبالتالي كان من الطبيعي أن تسيطر عليه، وأن توجهه. وقل مثل ذلك في التفرقة بين الإنسان والحيوان بعامة، وبين الذكر والأنثى بصفة خاصة. وأينما وجدت هذه التفرقة، فإن من الأفضل أن يحكم الجانب الأعلى، وأن يطيع الجانب الأدنى. ومن هنا نجد أن بعض الناس

= السياسة ص 1 حاشية 2، وأيضًا جورج سباين: تطور الفكر السياسي مجلد 1 ص 118 - 119.

(1) Aristotle: op, Cit. 1959 - A.
(2) Ibid.
(3) Ibid.
(4) Ibid: 1961 - A.

هم بطبيعتهم «سادة»، وبعضهم الآخر «عبيد»، فالرق بالنسبة لهؤلاء نافع بقدر ما هو عادل. وينتهي أرسطو من ذلك إلى الحكم على بعض الأجناس بأنهم رقيق بالطبع، والبعض الآخر أحرار، وقد خص الإغريق بأنهم سادة لا يجوز استرقاقهم، إنهم ورثوا الروح العالية والشجاعة التي تميز بهما أهل الشمال، والذكاء الذي تميز به الشرقيون[1].

ثانيا: علاقة الزوج بزوجته:

المرأة بطبيعتها أدنى من الرجل، ولهذا كان من الطبيعي أن يحكمها الرجل، وهو قانون صارم يسري على موجودات الطبيعة أيًّا كان نوعها. عضوية أو غير عضوية، يقول إن الأعلى يحكم الأدنى.

والحق أن أرسطو يستعير مصطلحات السياسة ليطبقها على الكون، أو يأخذ من تسلسل مراتب الموجودات - أعني هيراركية الكون - مبدأ يطبقه على الدولة، بحيث لا نعرف على وجه الدقة أيهما يسبق الآخر! فإن قلنا إن فكر التسلسل التصاعدي فكرة ميتافيزيقية، وهي بمثابة الدعامة للفلسفة السياسية، وجدناه يستخدم مصطلحات كالحاكم والمحكوم، والملك والرعايا، والارستقراطية.. إلخ يستحيل أن تكون في مجال آخر غير مجال السياسة! فهو يذهب مثلًا إلى أن «الموجودات الجامدة هي الأدنى، ولهذا تسيطر عليها وتحكمها الكائنات الحية، والنفس هي التي تحكم الجسد الذي هو بطبيعته محكوم.. إلخ»[2].

(1) Aristotle: Ethics, 1166 - B - Complete Works Vol. 2 p. 1834.
(2) Ibid.

ومن هذه الزاوية نراه يعقد مقارنة بين العلاقات في المنزل وأشكال الحكم في الدولة! يقول: «ونحن نجد لأنواع هذه العلاقات شبيهًا في المنزل أيضًا: فعلاقة الأب بأبنائه تتخذ شكل النظام الملكي، لأن الأب، كالملك، معنى بسعادة أبنائه. وهذا هو السبب الذي جعل هوميروس يسمي زيوس Zeus بـ «زيوس الأب»، لأن المثل الأعلى للملك أن يكون حكمه أبويًا[1]. لكننا نجد بين الفرس أن الحاكم الأبوي يشبه الطاغية، أنهم يعاملون أبناءهم معاملة العبيد[2].

وعلاقة السيد بالعبد هي أيضًا أشبه بحكم الطغيان، ما دام السيد هنا كالطاغية، يستخدم العبيد فيما يفيده هو لا ما يفيد العبد. وهذه فيما يبدو علاقة طبيعية سليمة، أما العلاقة الفارسية (علاقة الأب بأبنائه) فهي خاطئة لأن هناك أنواعًا مختلفة من الرعايا يحتاجون لأنواع مختلفة من الحكم[3].

وأما العلاقة بين الزوج والزوجة فمن الواضح أنها تشبه صورة الحكم الارستقراطي، فالرجل يحكم بما له من جدارة واستحقاق، وفي ميدان هو ميدانه، وإن كان يعطي زوجته الموضوعات التي تناسبها. فإذا ما أكد الرجل سيطرته على كل شيء، فإنه يميل بنظام بيته إلى ما يشبه الحكم الأوليجاركي، لاتفاق ذلك الحكم ومطابقته لتفوقه وسموه[4] لكن في بعض الحالات نجد الزوجة هي التي تحكم بسبب أنها الوريث الوحيد. ومن ثم فإن مثل هذا

(1) فكرة لو عرفها الرئيس السادات لأصبح مشائيًا متعصبًا، فالمعلم الأول يريد للحاكم أن يكون كبير العائلة (انظر كبير العائلة تناقض في الألفاظ، كتاب «في مفترق الطرق» للدكتور. زكي نجيب محمود ص 324.

(2) Aristotle: Ethicse, 1161 - A - and politics 1259B.

(3) Ibid.

(4) Ibid.

الحكـم لا يقوم على الجدارة والاسـتحقاق، و إنما على الـثروة والقوة كما هي الحال في الحكم الأوليجاركي[1].

أمـا العلاقة بـين الأخوة فهي تشـبه النظـام التيموقراطـي Timocract لأنهم أنداد Equals باستثناء اختلاف أعمارهم، ولهذا فلو كانت الفوارق في أعمارهم كبيرة فإن صداقتهم لا تصلح أن تكون أخوية.

أمـا نظام الحكم الديمقراطي، فإنما يعبر عنه تعبيرًا كاملًا في المنزل الذي لا يكون له سـيد. فهـا هنا يكون الأعضاء متسـاوين جميعًـا، و يوجد هذا النظـام أيضًا عندما يكـون رب الأسرة ضعيفًا، بحيث يسـتطيع كل فرد من أفراد الأسرة أن يسـير على هواه![2]، ونحن نجده هنا يفهم الديمقراطية فهماً يقترب من فهم أسـتاذه لها، فهي أقرب ما تكون إلى الفوضى التي يصبح معها كل فرد حرًّا في سلوكه وتصرفاته.

ثالثًا: أشكال الحكم

درس أرسـطو، مـع تلاميـذه، مجموعة كبيرة مـن الدسـاتير بلغت 158 دسـتورًا، لم يصل إلينا منها، مع الأسـف، سوى دسـتور واحد هو «دستور الأثينيـين» الذي يتحدث عن تطور الحكم في مدينـة أثينا، في عهود مختلفة، بشيء من التفصيل.

حرص أرسـطو على أن يفرق بين الدولة والحكومة، من حيث إن الأولى مجموعـة من المواطنين يعيشـون عـلى قطعة معينـة مـن الأرض.. وهو يبدأ

(1) Ibid.
(2) Ibid.

بتعريف المواطن فيقول: «لا يكون المرء مواطنًا بفضل الإقامة في المكان فحسب، وذلك لأن الأجانب والعبيد يشاركون في الإقامة أيضًا مع المواطنين. لكنهم ليسوا مواطنين!.»[1]. وينتهي إلى أنه «لا شيء يعطي المواطن صفة المواطنة الكاملة إلا المشاركة في الأمور التشريعية والتنفيذية.. إلخ»[2].

أما الحكومة فهي الفئة التي تتولى تنظيم أمور الدولة والإشراف على الوظائف العامة، وهذه الفئة تختلف أشكالها باختلاف الهدف الذي تسعى إلى تحقيقه، كما تختلف أيضًا باختلاف عدد القائمين بالحكم، فمن حيث الهدف قد تكون الحكومة صالحة أو فاسدة: فأما الحكومة الصالحة فهي التي تعمل لصالح المواطنين جميعًا، غايتها تحقيق سعادة الكل، في حين أن الحكومة الفاسدة هي التي تتوخى مصلحة من يقومون بالحكم، وتدبر شؤون الدولة وفقًا لمصالحها الخاصة، وعلى حساب مصالح المجموع، وتضرب برغبات المواطنين عرض الحائط. أما من حيث عدد الحكام. فقد يكون الحاكم فردًا أو قلة من الأفراد أو كثرة[3].

ولو أننا جمعنا المعيارين معًا - الكمي والكيفي لأمكن تقسيم أشكال الحكم عند أرسطو ستة أقسام، ثلاثة منها صالحة وثلاثة فاسدة، على النحو التالي:

(أ) الأشكال الصالحة:

1- **النظام الملكي:** حيث يكون الحاكم فردًا، لكنه يحكم وفقًا للقانون ويستهدف الصالح العام.

(1) Aristotle, politics, 1274 - B.
(2) Ibid.
(3) Ibid.

2- **النظام الأرستقراطي:** حيث تكون السلطة في يد قلة متميزة من جميع الوجوه، وهي تحكم أيضًا طبقًا للقانون، وتستهدف الصالح العام.

3- **النظام الدستوري أو البوليتيا Politeia:** وفيه تكون السلطة للأغلبية.

(ب) الأشكال الفاسدة:

1- **الطاغية:** حيث يكون الحاكم فردًا يستغل السلطة لمصلحته الشخصية دون أن يتقيد بقانون، ورغم إرادة المحكومين.

2- **النظام الأوليجاركي:** حيث تكون السلطة في يد أقلية متميزة من حيث الثراء، أي حكم الأغنياء لمصلحتهم الخاصة.

3- **النظام الديماجوجي (الغوغائي):** وفيه تكون السلطة للأغلبية من الفقراء ويستغلونها ضد الأغنياء.

ويمكن أن نلخص أشكال الحكم عند أرسطو في الجدول التالي:

التقسيم حسب الكم	التقسيم حسب الكيف	
	حكومة	حكومة فاسدة
فرد واحد	ملكية	طغيان
قلة	أرستقراطية	أوليجاركية
كثرة	دستورية (بوليتيا)	ديماجوجية

أشكال الحكم عند أرسطو[1]

(1) هذا التقسيم بالغ الأهمية لأنه هو الذي سيتكرر بعد ذلك في الفكر السياسي الأوروبي سواء في العصور الوسطى أو العصر الحديث.

ويهمنا من هذه الأنظمة في المقام الأول نظام الفرد الواحد «الملكية - الفرد - الصالح - والطغيان - الفرد الفاسد. ويرى أرسطو أن هناك خمسة أنواع من النظام الملكي هي على النحو التالي:

(1) النظام الملكي الذي نص عليه دستور إسبرطة، وهو أول أنواع الملكية، وينظر إليه عادة على أنه أقوى أشكال النظام الملكي الدستوري، فهي ليست ملكية مطلقة السيادة. وهناك ملكان في أسبرطة يحكمان في آن معًا، لكنهما لا يشرفان على كل شيء، بل لهما سلطة قيادة الجيش في الحرب، أعني أنهما يديران المعارك عندما يكونان خارج البلاد - أي خارج الأرض الإسبرطية. كما أن لهما الحق في الإشراف على الطقوس الدينية، لكن ليس من حقهما إصدار الحكم بالإعدام «أو سلطة الحياة والموت»[1].

(2) هناك نوع آخر من النظام الملكي يوجد عند الشعوب غير المتحضرة - البرابرة، أو غير اليونانيين بصفة عامة. والملك في هذا الضرب من الملكية يمسك في يديه جميع السلطات، وهذا قريب الشبه بالطغيان، لكنه لا يزال نظامًا دستوريًا، فهي ملكية وراثية يتولى فيها الابن عرش أبيه.

والحق أن النظام الملكي عند الشعوب غير المتحضرة يحمل سمة الطغيان - لاسيما عند الشعوب الآسيوية، لأن هذه الشعوب غير المتحضرة لديها طبيعة العبيد، وهي طبيعة غير موجودة عند الشعب اليوناني، ولهذا فإننا نجد الشعوب الآسيوية التي تتسم بسمة العبيد

(1) Aristotle, politics, 1285 - A.

أكثر من شعوب أوروبا، تتحمل الحكم الاستبدادي، وكذلك الطغيان بغير شكوى أو تذمر[1].

(3) هناك شكل ثالث من أشكال الحكم الفردي عرفه اليونانيون القدامى، وهو يشمل من يسمون «بالديكتاتورية» (أو القضاة)[2]. وهذا النوع من الملكية يمكن أن يكون، على وجه التقريب، شكلًا من أشكال الطغيان المنتخب أو المختار، وهو - مرة أخرى - يختلف عن النظام الملكي عند الشعوب غير المتحضرة ليس في أنه غير دستوري، بل في أنه غير وراثي، فبعض الديكتاتوريين يتقلدون مناصبهم مدى الحياة، وبعضهم الآخر لفترة محدودة، أو للقيام بمهام معينة، فلقد تم اختيار بتاكوس pitacus في مدينة ميتلين Mity lene ليصد هجمات المنفيين والمبعدين، الذين كان يقودهم أنتميدس Antimeides والشاعر الغنائي الكايوس Acaeus[3].

---

(1) Ibid.

(2) الكلمة اليونانية التي يستخدمها أرسطو أسمينتيا Aisumenteia وهي تعني القاضي في معناها المألوف. لكن أرسطو يستخدمها بمعناها التطبيقي غير المعتاد الذي يكاد يقترب بصفة خاصة من منصب «الديكتاتور الروماني» الذي سبق أن أشرنا إليه، وهو في مصطلحاتنا المعاصرة «الحاكم العسكري» الذي يتولى دفة الأمور في فترات خاصة كالحروب والكوارث..

(3) Aristotle, politics, 1285 - A.

ويرى ديوجينس اللايرتي أن بتاكوس pittacus كان في القرن السادس ق. م. واحدًا من الحكماء السبعة، ويروى عنه أنه قاد قوات مدينة ميتلين Mitylene في حربها ضد الأثينيين، عندما تنازعت المدينتان على قطعة أرض، وأنه وافق على نزال قائد الأثينيين في معركة فردية وقتله، وقد أولاه شعب مدينة ميتلين سلطات استثنائية حكم بها البلاد عشر سنوات، وأعاد فيها الدستور والنظام ثم تنحى عن منصبه. وقد عاش=

هـذه الديكتاتوريـات القديمـة كانـت ولا تزال تحمـل طابعًا مزدوجًـا، فهم طغـاة من حيث ما لديهم من سـلطة اسـتبدادية، أي مـن حيث انفرادهم بالحكم، ولكنهم ملوك من حيث إنهم مختارون يستندون إلى رضاء المواطنين وموافقتهم.

(4) لكـن هناك نوعًـا رابعًا من النظام الملكي، وهو النظام الذي سـاد في العصر البطولي، وكان نظامًا دستوريًا يعتمد على رضاء المحكومين، وينحدر من الأب إلى أبنائه. وكان مؤسسـو الأسر المالكة محسـنين لشـعوبهم في الفنون وفي الحروب، وقد احتفظوا بثلاث وظائف من وظائف السيادة:

أ - فهم قادة في الحروب.

ب - وهم قضاة يحكمون في الدعاوى القانونية.

جـ - ولهـم وظيفة دينية عند تقديم القرابين بحيث لا يحتاجون إلى كاهن.

ولقد اسـتمتعوا في العصـور الغابرة بسـلطة دائمة، وأشرفوا عـلى شـؤون الدولـة الداخلية والخارجيـة. ثم تغـير الوضع مع نهاية هـذه العصـور. حيث تقلصت هـذه المميـزات، فبعضها

= عشر سنوات بعد تنازله عن الحكم فوهبه الشعب قطعة من الأرض كانت تحمل اسمه في أيامه، والخلاصة أن الديكتاتور تعني هنا إطلاق يد الحاكم للقيام بمهمة معينة فهي أقرب إلى الحاكم العسكري عندنا الآن. انظر:
Diogenes Leartius: Lives of Eminent philosophers Vol. 1 p. 75 - 77. Trans. By R. D. Hicks, Loeb Classical Library, 1972.

تخلى الملوك عنه طواعية، وبعضها الآخر استولى عليه الشعب. والشيء الوحيد الذي ترك لهم في النهاية هو الإشراف التقليدي على تقديم القرابين للآلهة. وحتى في الأوقات التي كان يقال فيها إن النظام الملكي لا يزال له وجود حقيقي، فإن السلطة الوحيدة الفعالة التي كانت للملك هي سلطة القائد العسكري إبان الحملات الخارجية.

(5) لكن لا تزال هناك صورة خامسة تختلف عن الصور الأربع السابقة وهي الصورة المطلقة، أعني التي هي ضرب من الحكم المطلق، حيث يكون لشخص واحد السيادة على جميع المواطنين، وفي شتى المسائل، وفي جميع الأمور، وهي تناظر الحكم الأبوي في العائلة، فكما أن سلطة الأب هي ضرب من الملكية في الأسرة، فكذلك النظام الملكي الذي نتحدث عنه الآن هو صورة من إدارة الأسرة مطبقة على مدينة أو قبيلة أو مجموعة من القبائل.

ولما كان الملك في هذه الصورة الأخيرة يسيطر على جميع الأمور، ولما كانت له السيادة في شتى الموضوعات والمواقف، فإن ملكًا من هذا القبيل لهو جدير بأن يُسمى «الملك الشامل» pan Basileus؛ وهو مصطلح يعني عند أرسطو الملك صاحب السلطة الشاملة التي يمكن مقارنتها بوضع الأب الذي يمارس سلطات شاملة مماثلة على جميع أفراد الأسرة، فالواقع أن السيادة هنا سيادة أخلاقية يتمتع بها «كبير العائلة»!، وسيادة الأب هنا تشبه نظرية بودان - Bo din أو نظرية فلمر filmer، وسوف نتحدث عن الأخير بشيء من التفصيل فيما بعد.

رابعا: الطاغية

(ا) أنواع الطغيان:

يرى أرسطو أن الطغيان صورة من صور الحكم الفردي عندما يتحول إلى حكم سيئ ينفرد فيه صاحبه بالسلطة دون حسيب ولا رقيب، فلا يكون هناك قانون يحكم. بل إرادة الفرد. وهناك ثلاثة أنواع تتدرج في السوء، و إن اشتركت كلها في التفرد بالحكم:

النوع الأول: ما سبق أن تحدثنا عنه في النظام الملكي وهو الديكتاتور الذي يختاره الشعب للقيام بمهام معينة، ولفترة محددة، على نحو ما حدث عند الإغريق في فترة مبكرة من تاريخهم[1]. وهو ما يمكن أن نسميه بلغتنا الحديثة «الحاكم العسكري العام»، عندما تُفرض الأحكام العرفية في بلد ما بسبب الحرب أو الكوارث الطبيعية أو انتشار أمراض وبائية.. إلخ ويحتاج الأمر إلى قرارات سريعة، وهو ضرب من الحكم وجد عند الرومان أيضًا، قد لا يكون سيئًا، اللهم إلا إذا خرج فيه صاحبه عن المهام الموكولة إليه، أو تجاوز حدود المدة الزمنية فاستمر في الانفراد بالحكم[2].

النوع الثاني: النظام الملكي المطلق الموجود عند «البرابرة»، على نحو ما هو موجود مثلًا في الإمبراطورية الفارسية، حيث نجد سلطة الملك مطلقة لا يقيدها عرف ولا قانون، وهذا الضرب من الحكم يقول عنه أرسطو إنه «نصف ملكية، ونصف طغيان»: نصف ملكية لأن الحاكم هنا لم يغتصب الحكم،

(1) Arstotle. politics. 1286 - A.

(2) Ibid.

و إنما تولاه بناءً على أساس شرعي عندما ورثه عن أبيه، ونصف طغيان لأن الحاكم يسلك بمزاج السيد الذي يسيطر على عبيده فالحكم يسير طبقًا لإرادة الحاكم وحدها![1].

النوع الثالث: الشكل الثالث من الطغيان هو ما يُفهم عادة من هذا المصطلح، وهو الذي يستحق فعلًا هذا الاسم، فالحاكم هنا يحكم حكمًا مطلقًا بلا رقيب ولا حسيب ولا مسؤولية من أي نوع: إنه السيد الأوحد الذي يحكم لمصلحته الشخصية، ولأهدافه الخاصة وحدها، فالنوع السابق من الطغيان قد ينفرد فيه الحاكم بالحكم، لكنه قد يضع في ذهنه مصلحة الناس والخير العام للشعب. أما في الشكل الثالث فإننا نجد الحاكم لا يكترث لشيء سوى صالحه الخاص: ذلك هو الحكم الفردي الذي يتسلط فيه الطاغية بلا مسؤولية على مواطنين أنداد له، بل قد يفضلونه، و يتولى فيه السلطة لمصلحته الشخصية لا لمصلحة المحكومين، بل دون أن يهتم أدنى اهتمام بمصالحهم الشخصية، وهذا ما يجعله حكمًا بالإكراه، إذا لا يخضع أحد من الأحرار طوعًا لهذا الحكم[2].

ولما كان هذا حكمًا بالإكراه فإن الطاغية في هذا الضرب من الحكم يغتصب السلطة اغتصابًا دون أن يكترث برضا المواطنين، إنه يصل إلى الحكم بالقوة المسلحة أو بحد السيف.. إلخ دون أن يستند إلى أي حق شرعي في توليها[3].

(1) Ibid.

(2) Aristotle. politcs. 1295 - B.

(3) كل حاكم يصل إلى منصة الحكم بغير اختيار حر من الشعب هو طاغية، سواء جاء عن طريق الانقلابات العسكرية أو البيعة بحد السيف !

وذلك هو تعريف الطاغية الذي ساد الفكر السياسي الأوروبي بعد ذلك. يقول جون لوك معرفًا الطغيان تعريفًا يكاد هو نفسه تعريف أرسطو: إذا كان الاغتصاب هو ممارسة إنسان ما لسلطة ليست من حقه، فإن الطغيان هو ممارسة سلطة لا تستند إلى أي حق، ويستحيل أن تكون حقًا لإنسان ما!»[1]

والخاصية الثانية التي سادت الفكر الأوروبي، وأخذت عن أرسطو أيضًا هي أن الطاغية يستخدم السلطة التي انفرد بها لصالحه الخاص. ويقول الملك جيمس في خطاب أمام البرلمان الإنجليزي سنة 1630، «إن الفرق بين الملك والطاغية هو أن الأول يجعل من القوانين حدًّا تنتهي عنده سلطته، كما أنه يجعل من خير المجموع الغرض الأساسي لحكمه، أم الطاغية فلا حد لسلطانه، كما أنه يسخر كل شيء لإرادته ورغباته»[2].

وإن كان من الممكن الجمع بين هاتين الخاصيتين في خاصية واحده فهي «عدم المساءلة»، فهو لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون!. وإذا كان طغاة اليونان كانوا يشبعون شهواتهم ومصالحهم الخاصة، فقد تكون شهوات طغاة اليوم أوسع وأعمق كتكوين إمبراطورية، أو إقامة أمجاد زائفة لأنفسهم، أو إعادة فكرة تاريخية عفا عليها الزمان!.

(2) اختلاف الطغيان عن النظام الملكي:

يعتقد أرسطو أن الطغيان هو أسوأ أشكال الحكومات كلها، فحكومة

(1) جون لوك في «الحكم الذاتي» فقرة رقم 199.
(2) المرجع السابق فقرة رقم 200.

الطاغيـة تجمـع مسـاوئ وانحرافـات وعيـوب الحكومتـين الأوليجاركيـة والديماجوجية، ولهذا كانت أشد منهما ضررًا على رعاياها![1].

و إذا كان أرسطو دائم الحديث عن الطغيان في النظام الملكي بل والربط والمقارنة بينهما، فإننا نراه ينبهنا إلى أنهما إذا كانا متشابهين، فإن بينهما فروقًا أسياسية، واختلافات مهمة، يمكن أن نذكر بعضها على النحو التالي[2]:

أ - من حيث المنشأ، فإننا نجد أن الملوك قد نشأوا في أسر رفيعة وخرجوا مـن طبقات عليا، وهم مع ذلك يحمون بطبيعتهم الطبقات الشـعبية، ذلك لأنهم يعتمدون في حكمهم على السمو: السمو الشخصي، وسمو الأسرة في الخلق والسلوك.

ب - أما الطغاة فقد نشـأوا، عـلى العكس، في أجواء دنيـا، فقد خرجوا مـن الطبقات الشـعبية ومن الجماهـير، ولهذا اسـتهدفوا في الأعم الأغلب حماية الجماهـير الذين خرجوا من بينهم ضد طبقة النبلاء والأشراف (و يبدو أن أرسـطو متأثر هنا بفكـرة أفلاطون القائلة بخـروج نظام الطاغيـة من الديمقراطيـة أو الغوغـاء!) فالطاغية يظهـر لإنقاذ الجماهير وهو يتولى الحكم بدعوى رفع الظلم الواقع عليهم. و يرى أرسـطو أن سجلات التاريخ تشهد بهذه الواقعة، أو يمكـن القول بحق إن معظم الطغـاة بدأوا حياتهم ديماجوجيين، ثم اكتسبوا ثقة الشعب بافتراءاتهم ضد طبقة النبلاء.

(1) Aristotle. politics. 1310 - B.

(2) Ibid.

بل إن الطاغية قد يلجأ إلى إشاعة الفوضى والبلبلة والاضطراب، حتى يشعر الجماهير بحاجتها إليه وحمايتها من طبقة الأغنياء التي تستولي على حقوقها!.

جـ - لكن أرسطو ينبهنا إلى أنه ليست هذه هي الطريقة الوحيدة لمنشأ الطغاة، فعلى الرغم من أن العدد الأكبر من الطغاة نشأوا بهذه الطريقة في الأمة التي كانت بها الطبقات الشعبية قوية في الدولة، فإن هناك بعض الطغاة في فترات أكثر قدمًا نشأوا بطرق مختلفة. فقد استمد بعض الطغاة مصدره من طموحات الملوك الذين انتهكوا الحدود التقليدية لقوانين بلادهم، فطمعوا في اكتساب سلطة استبدادية ومعظم نظام الطغيان الأخرى أسسها رجال أصلاء انتخبهم الشعب في البداية لمهمات عليا»[1]. فالملوك قد ينقلبون طغاة إذا لم يتقيدوا بالقوانين، والحاكم العسكري قد ينتهز الفرصة فيمد السلطة الممنوحة له لأداء مهمة معنية، ويتولاها طيلة حياته، ويسخرها لأغراضه هو!، بل قد يخرج الطاغية من قلب النظام الأوليجاركي (حكم القلة الغنية)، عندما تختار هذه القلة شخصًا معينًا تمنحه اختصاصات سياسية واسعة إلى أقصى حد كالإشراف على شؤون الدولة ومراقبتها.

وفي جميع هذه الحالات تسنح الفرصة لشخص من الأشخاص الطموحين ليصبح طاغية إذا أراد، فقد يتاح له أن توضع السلطة كلها في يديه أو قد يخضع لسطوة المنصب، لاسيما إذا كان من المناصب العليا أو السامية.. وقد

(1) Aristotle: Op. Cit

حـدث ذلك طوال التاريخ اليوناني القديـم في كثير من المدن اليونانية. وعلى هذا النحو أصبح فيدون pheidon طاغية لمدينة أرجوس [1] Argos، وقد يبدأ الحاكـم ملـكًا ثم يتحول إلى طاغية، على نحو ما حـدث لطغاة أيونيا Ionia، وفلاريـس plalaris، طاغية مدينة أجريجنتم Agrigentum[2] فقد اسـتغلوا مناصبهم جسرًا للطغيان[3].

(3) الملك والطاغية:

يعقـد أرسـطو مقارنة مهمة بين الملـك والطاغية لأنها تـرددت كثيرًا في الفكر السياسي الغربي بعد ذلك. ويمكن أن نوجز أهم نقاطها فيما يلي:

أ - مهمة الملك حماية الشـعب، ومنع الظلم الذي يمكن أن يلحق به، ولا يحاول قط أن يلحق بالغالبية العظمى من الناس أي أذى و إهانة.

---

(1) كان فيدون ملكًا على مدينة أرجوس في القرن الثاني قبل الميلاد ثم تحول إلى طاغية .

(2) يروى أن فلاريس «طاغية» أجريجنتم (من أعمال صقلية وكان طاغيتها نحو عام 565 ق. م) كان يشوي المساجين من أعدائه في مملكته بأن يضعهم داخل سور نحاس ضخم، ثم يوقد تحته نارًا هادئة، وتوضع قصبتان تشبهان المزمار في منخري الثور بطريقة فنية بارعة بحيث تتحول أنات المساجين، وصرخاتهم حين تصل إلى أذنيه نغمات وألحان موسيقية شجية!! ويرى «أندروز» أن هذه القصة ربما كانت أسطورة اختلقها الناس لتشويه الصورة الحقيقية لتاريخه. قارن : Andrewes: Greek Tyrants. p. 129

(3) ويرى أرسطو أن هناك طغاة آخرين من أمثال بنيتيوس panaetius طاغية مدينة ليونتين Leontini وكبسيلوس CyPselus طاغية كورنيثه و«بيزستراتوس Pesis tratus طاغية أثينا، وديونسيوس طاغية سيراقوصة وعدد آخر من الطغاة الآخرين - بدأوا ديماجوجيي السياسة 1310 ب. ويقول «أندروز» إنهم حرضوا العامة، وأثاروهم ضد الأغنياء من الأوليجاركيين، طغاة الإغريق ص 129.

ب- أما الطاغية فهو على العكس لا يهتم إلا بمنافعه الشخصية. إن هدف الطاغية هو المتعة والاستمتاع، في حين هدف الملك هو الفضيلة والخير.

جـ - يطمع الطاغية في المال أو الثروة أو الجاه أو المجد في حين يطمع الملك إلى الخير والشرف والفضيلة.

د - يعتمد الطاغية في حراسته على المرتزقة من الأجانب، في حين يعتمد الملك في حراسته على المواطنين[1]. وهنا لا بد أن نتوقف قليلاً، لأن الطاغية في بلادنا قد لا يعتمد على المرتزقة من الأجانب كما يشير أرسطو (رغم أن بعضهم كان يعتمد على المستعمر الأجنبي في القرن الماضي!) لكنه قد يستخدم مواطنين مرتشين يعطيهم مناصب ووظائف لم يكن لهم أن يحلموا بها، أو رتبًا أو مبالغ طائلة من المرتبات، أو من التسهيلات الأخرى!، والفكرة واحدة، وهي أن الطاغية كما يقول أرسطو «يدفع لكي يحمي نفسه»! أما الملك أو الحاكم الصالح فيحميه النظام و يدافع عنه المواطنون!.

هـ - يتصف الطاغية بعدم الثقة في الشعب، ولهذا يفزع من حمله للسلاح، وهكذا يلجأ إلى إيذاء الناس، متفقًا في ذلك مع الأوليجاركية التي يأخذ أسوأ ما فيها![2].

و - يقف الطاغية من المشاهير والأعلام موقف العداء و يضع الخطط

(1) Aristotle. Politics. 1311 - A.

(2) Ibid.

السرية والعلنية للقضاء عليهم، أو الإيقاع بهم وتشريدهم، كخصوم سياسيين ومناهضين للحكم، ذلك لأنه يعلم تمام العلم أن الثورات ضده تخرج من صفوف هؤلاء القوم! فبعضهم يتآمر عليه لأنهم لا يريدون أن يكونوا عبيدًا للطاغية!. ويفسر لنا ذلك تلك النصيحة التي قدمها بريندر Periander طاغية كورنثة لأحد أصدقائه من الطغاة الذي أرسل رسولًا يطلب النصيحة، فأخذ الرسول إلى الحقول، وراح يضرب بعصاه سنابل القمح البارزة مشيرًا عليه بذلك بضرورة قطع رقاب علية القوم في المدينة!، وكانت نصيحة تناقلها الطغاة من عصر إلى عصر، وهي «ضرورة التخلص من العناصر البارزة في المجتمع!!»[1].

(4) كيف يحتفظ الطاغية بحكمه؟

في استطاعتنا أن نقول إن عوامل استقرار الحكم الفردي عمومًا تكاد تكون واحدة، هي الاعتدال، فالملك المعتدل يحتفظ بعرشه، كذلك يبقى الملك كلما تقلصت امتيازاته وقلل هو نفسه من سلوكه كسيد أو من معاملة المواطنين معاملة دنيا. إن عليه - على العكس - أن يعاملهم كأنداد ونظراء. وهذا هو السبب في بقاء النظام الملكي في بعض البلدان لفترة طويلة. كذلك يمكن أن نغزو بقاء النظام الملكي في إسبرطة إلى أن السلطة كانت موزعة بين ملكين من ناحية، وأنه كان هناك اعتدال في تصرفاتهما بصفة عامة[2] من ناحية أخرى.

(1) Ibid.

(2) Aristote, Politics, 1313 - A.

أمـا الطاغيـة فإنه يحتفظ بعرشـه بإحدى وسـيلتين تعـارض كل منهما الأخرى تمام المعارضة، وهما على النحو التالي:

الطريقة الأولى:

سـوف نجـد أن الوسـائل التـي يعتقـد أرسـطو أن الطاغية يلجـأ إليها للاحتفـاظ بعرشـه مألوفة لنـا تمامًا، فهي طريقـة تقليدية يتوارثهـا الطغاة، ويسير عليها معظمهم في تدبير شؤون سلطانهم. ولقد ابتكر أغلب خصائص هـذه الطريقة، في الأصل، بريندر Periander طاغية كورنثة، وإن كان قد اسـتمد الكثير من سـماتها من نظام الحكم في فارس. ولقد سـبق أن أشرنا إلى بعضها بالفعل، ولكن علينا أن نجمل أهمهما فيما يأتي:

1- الغاية النهائية للطاغية، لكي يحتفظ بعرشه، هي تدمير روح المواطنين، وزرع الشـك وانعدام الثقة فيـما بينهم، وجعلهم عاجزين عن عمل شيء أو فعل أي شيء! كذلك تعويد الناس الخسـة والضعة، والعيش بلا كرامة، بحيث يسهل عليهم أن يعتادوا الذل والهوان[1].

2- القضـاء عـلى البارزيـن مـن الرجـال، وأصحـاب العقـول الناضجـة، واسـتئصال كل من تفوق أو حاول أن يرفع رأسه[2]. وقد سبق أن تحدث عنها أفلاطون باسم «طريقة التطهير» التي هي عكس طريقة الأطباء!.

(1) Ibid.

(2) يشير أرنست باركر إلى أن أرسطو يقصد العادات الشرقية وهو يتحدث عن ضعة المواطن وإذلاله، من ذلك ما كان موجودًا في فارس وعند الصينيين وغيرهم من «عبادة الطاغية» في صورة السجود تحت قدميه»!! انظر ترجمته لكتاب السياسية لأرسطو ص 244 حاشية رقم 4.

3- منع الموائد المشتركة والاجتماعات والنوادي وحظر التعليم (أو جعله لونًا من الدعاية للحاكم كما يحدث عندنا الآن!) وحجب كل ما يعمل على تنوير النفوس أو كل ما يبث الشجاعة والثقة بالنفس![1].

4- منع المواطنين من التجمع لأغراض ثقافية أو أي تجمع مماثل، واتخاذ كافة السبل التي تغرس في المواطن، في نهاية الأمر، الشعور بأنه غريب عن بلده، بقدر المستطاع - أعني قطع الحبل السري الذي يربط المواطن بوطنه! ذلك لأن تعارف المواطنين وتوادهم يؤدي باستمرار إلى ثقة متبادلة.

5- إجبار كل مقيم في المدينة أن يظهر للعيان بصفة مستمرة، وإكراهه بوجه عام ألا يجاوز أبدًا أبواب المدينة إلا إذا كان الطاغية وأعوانه على علم بما يعمل الناس في دولته. وهكذا يواصل الطاغية استبعاد المواطنين، وعن طريق الاستعباد المستمر يعتاد الناس الخسة والضعة والهوان. وهذا يعني إعطاء الطاغية ثقبًا صغيرًا ينظر منه ليرى أفعال مواطنيه حتى يعتادوا الهوان ويألفوا العبودية اليومية. ويشتمل هذا الخط السياسي كذلك على وسائل أخرى ذات طبيعة مشابهة، وهي شائعة عند الفرس، وعند البرابرة عمومًا. وهي كلها تؤدي إلى نتيجة واحدة، هي المحافظة على الطاغية[2].

6- أن يجتهد الطاغية حتى تكون لديه معلومات منتظمة حول كل ما

(1) Aristotle, Politics, 1313 - B.

(2) Ibid

يفعلـه رعاياه أو يقولونـه. وهذا يعني أن تكـون هناك شرطة سرية وجواسـيس أو عيـون يبثها في أرجاء البلاد عـلى نحو ما كان طاغية سـيراقوصة يفعـل عندما كان يسـتخدم جواسـيس من النسـاء، أو المتنصتـون الذيـن كان يبعـث بهـم هـيرو Hiero الطاغيـة في كل المجتمعـات والمحافل والمجالـس العامة، لأن النـاس بهذه الطريقة كانـوا يقللـون من صراحتهـم إذا ما تكلمـوا عن نظـام الحكم، أو يكتمـون أراءهـم بداخلهـم، لأنهم يخشـون الجواسـيس، ويهابون العيـون والآذان المنتـشرة حولهـم ذلـك لأنهم إن تجـاسروا وتحدثوا انكشف أمرهم![1].

7- كذلك يعتمد الطاغية على إغـراء المواطنين أن يشي بعضهم بالبعض الآخـر، فتنعدم الثقة بينهم، ويدب الخـلاف بين الصديق وصديقه، وبين العوام وعلية القوم. وبين الأغنياء الفقراء. وهكذا فإن الطاغية يبذر الشـقاق والنميمة، ويثير حقد الشعب على الطبقات العليا التي يجتهد أن يفرق بينها![2]، ولو اطلع أرسـطو على أحوال الطغاة عندنا

(1) تعد أجهزة المخابرات في جمهورية الخوف العراقية من أرقى وأقوى الأجهزة في العالم! وإذا كانت أجهزة المخابرات تنشأ في العادة للتجسس على الخارج لحماية الدولة فإنها عندما تعمل أساسًا في الدخل، وجهاز المخابرات عند صدام حسين من أكثرها تنوعًا فهناك استخبارات خاصة بالحرب، وهناك فرع آخر مهمته مراقبة أجهزة الشرطة! ثم هناك أفرع للتجسس داخل الجيش، والإدارات الحكومية والمنظمات الشعبية الخاصة بالشباب والمرأة والعمال وأجهزة للتجسس على بعض المؤسسات الأخرى مثل«قسم الأمن الخاص»الذي يرأسه شقيق صدام الأصغر! «جمهورية الخوف» ص54.

(2) Ibid.

مـا زاد كثـيرًا على ما يقـول، ربما تحدث مثـلاً عن كتابـة التقارير. بحيث يتحول كل موظف في موقعه إلى جاسوس على من حوله. وربما تحدث عن رشوة البعض الآخر على طريقة المعز لدين الله الفاطمي: هذا حسـبي وهذا نسبي!، فبعض الناس يشـتريهم الطاغية بالمال أو بالمناصب أو برتبة عسـكرية، أو بوظيفة لم يكن يحلم بها. والبعض الآخر يودعهم السـجن أو يفصلهم أو يطرهم أو يصفيهم جسـديًا.. إلى آخر هذه المصطلحات الحديثة!!

8- وأخيرًا هناك وسيلة أخرى للطاغية هي إفقار رعاياه حتى لا يكلفه حرسـه شـيئًا من جهـة، وحتى ينشـغل المواطنون مـن جهة أخرى بالبحـث عن قوت يومهم، فـلا يجدون من الوقت مـا يتمكنون فيه من التآمر عليه - وهذه عبارة أرسـطو لأنها بنصها تجعل القارئ يظن أنـني أتحـدث عن واحد مـن العهود العسـكرية عندنا! - ويسـتمر المعلم الأول في ضرب الأمثلة بمصر وما فيها من «أعمال السخرة» أو الأعمال اللا إرادية التي يجبر عليها الإنسان!، يقول: «لديك المنشآت التـي أقيمـت في مصر كالأهـرام والمعابـد الهائلة..وكذلك تشـييد المعابـد لزيـوس التي أقامتها أسرة بيزسـتراتوس طاغيـة أثينا. ومثال آخر. الإضافة التي أضافهـا بوليكراتس Polycrates طاغية جزيرة سـاموس Samos إلى الآثـار العظيمـة في الجزيرة فليـس لجميع هذه الأعمال سوى هدف واحد هو إفقار المواطنين. وشغل فراغهم حتى لا يجدوا وقتًا لشيء آخر»[1]!، كما أن أرسطو يضيف لنفس الغرض،

(1) Ibid.

فرض الضرائب التي تؤدي نتيجة مماثلة، «ويمكن أن نسرق مثالًا من سيراقوصة، حيث نجد أنه خلال خمس سنوات من حكم الطاغية ديونيسوس الكبير (الأب)، دفع المواطنين كل ما لديهم من ممتلكات للدولة على سبيل الضرائب، فقد فرض الطاغية ضريبة سنوية اسمها ضريبة الممتلكات قدر بـ 20% مما يملكه الفرد!»[1].

وفضلاً عن ذلك كله فقد يلجأ الطاغية إلى إشعال الحروب، بهدف أن ينشغل المواطنون بصفة مستمرة، ولا ينفكون يحتاجون إلى قائد على الدوام.

إن السمات الأساسية للطاغية هي بذر بذور الشقاق، وانعدام الثقة بين المواطنين، وعلى حين أن النظام الملكي يعتمد في حمايته على الأصدقاء، فإن الطاغية يسير على المبدأ التالي: «إن الناس جميعًا يودون الإطاحة به، غير أن الأصدقاء وحدهم هم الذين يستطيعون ذلك». ومن ثم فينبغي أن تنعدم الثقة في الأصدقاء قبل غيرهم. ولهذا نجد أن الطاغية يشجع التأثير الثانوي في الأسرة، على أمل أن تقوم الزوجات بالإبلاغ عن أزواجهن! وللغاية نفسها تراهم يفرطون في تدليل العبيد والخدم حتى يتمكنوا من الإفشاء عن سادتهم[2].

ولهذا السبب أيضًا نجد الطاغية يختار الفاسدين من البشر في نظام حكمه ليكونوا له أصدقاءً، فهم عبيد النفاق والتملق، والطاغية تسره المداهنة، وينشيء من النفاق، ويريد من يتملقه. ولن تجد إنسانًا حرًّا شريفًا يقدم على مثل هذا العمل. فالرجل الخير يمكن أن يكون صديقًا، لكنه لا

(1) Ibid.
(2) Ibid.

يمكـن تحت أي ظـرف أن يكون مداهنًا أو متملقًا. أما الرجل السـيئ فليس لديه الاسـتعداد للقيام بهذا الدور فحسب، و إنما نراه يسعي إليه. إنه: «أداة حسنة لأغراض شريرة. و«لا يفل الحديد إلا الحديد» كما يقول المثل[1].

مـن عادة الطاغية ألا يحب رجـلًا ذا كرامة، أو رجـلًا شريفًا ذا روح عاليـة أو صاحب شـخصية مسـتقلة. ذلـك لأن الطاغية يدعـي أنه يحتكر لنفسـه هذه الخصال الحميدة. ومن ثم يشـعر أن أي إنسـان شريف صاحب كرامـة إنمـا يزاحمه في الجـلال والإباء، أو أنـه يحرمه من التفوق والسـيادة، فذلك اعتداء على سـيادته بوصفه طاغية. ومن هنـا فإن الطاغية يكره جميع الأخلاق الشريفة: لأنها اعتداء على سـلطانه. ومن عـادة الطاغية أن يفصل صحبـة الأجانب والغرباء عـلى مواطنيه، ولهذا يدعوهـم إلى مائدته، و إلى لقائه، و يأنس لهم في حياته اليومية.

وهكـذا يصبح المواطنون أعداءً، وأمـا الغرباء فلا خطر منهم لأنهم لا ينافسونه ولا يزاحمونه![2].

و يعود أرسطو فيلخص هذه الأساليب في ثلاث غايات تضرب بجذورها في أعماق الشر - على حد تعبيره - و يتطلع الطاغية إلى تحقيقها:

- **الغايـة الأولى:** هـي تدمـير روح المواطن، لأن الطاغيـة يعلم علم اليقـين أن صاحب الـروح الفقيرة - وهو الذليل الخانـع - لن يتآمر عليه على الإطلاق!

(1) Ibid.
(2) Ibid.

- **الغاية الثانية:** ارتياب المواطنين بعضهم من بعض، إذ إنه لا يمكن القضاء على الطاغية إلا إذا اتحد المواطنون، وتشاوروا، ووثق كل منهم بالآخر، وكذلك فإننا نجد الطاغية يكاد يطارد الأخيار من الناس، لأنه يراهم خطرًا مزدوجًا على سلطانه، فهم من ناحية خطر عندما يشعرون بأن من العار أن يحكموا كما يحكم العبيد. وهم خطر، من ناحية آخرى، عندما يشعرون بالولاء بعضهم لبعض، وبالثقة المتبادلة بينهم، وفي رفضهم أن يخون بعضهم بعضا!.
- **الغاية الثالثة:** والأخيرة هي أن الطاغية يهدف إلى أن يصبح مواطنوه عاجزين عجزًا تامًا عن أي فعل، ومن ثم يكون السعي إلى القضاء على الطاغية ضربًا من المحال. ولا أحد يحاول أن يصنع المستحيل، ومن ثم فلا أحد يحاول أن يطيح بالطاغية، ما داموا قد أصبحوا جميعًا عاجزين عن الحركة!

الطريقة الثانية:

الأساليب سابقة الذكر التي شرحناها بالتفصيل تمثل عند أرسطو الطريقة الأولى التي يلجأ إليها الطاغية للمحافظة على حكمه - وهي أكثر الطريقتين شيوعًا - وهي مألوفة لنا نحن الشرقيين. فجميع الأساليب التي تحدث عنها أرسطو قد خبرناها طوال تاريخنا، ولا نزال نعيش فيها حتى يومنا الراهن، حتى إن القارئ العربي عندما يقرأها يشعر بأن أرسطو يصف له ما يدور في مجتمعه، لاسيما المجتمعات العسكرية «الثورية» التي رفعت شعارات وطنية لتضحك بها على الجماهير، وتستميل مشاعر العامة، وعواطف

الدهماء، على نحو ما فعل «بيزستراتوس» طاغية أثينا الذي سنتحدث عنه في الفصل الأول من الباب الرابع.

غير أن هناك طريقة أخرى أقل شيوعًا من الطريقة الأولى، وهي تسير في خط معاكس ومضاد تمامًا، وسوف يكون في استطاعتنا أن تفهم بسهولة هذه الطريقة لو أننا عدنا إلى الوراء قليلًا، وتذكرنا العوامل التي تسهم - في رأى أرسطو - في تدمير النظام الملكي. فلقد سبق أن لاحظنا أن إحدى الطرق التي تدمر الملك هي أن يتحول إلى طاغية، وذلك يعنى أن إحدى الطرق التي يحافظ بها الطاغية على نظام حكمه هي أن يتحول الطغيان إلى طبيعة النظام الملكي، أعني أن يظل الطاغية محتفظًا بالقدرة وبالسلطة في حكم رعاياه، ليس برضاهم. بل رغمًا عنهم، فتناوله عن هذه الخاصية يعني تنازله عن الطغيان، غير أنه متى ثبتت هذه القاعدة استطاع الطاغية فيما يبقي أن يسلك سلوك الملك الحق، أو على الأُقل، أن يتخذ منه بمهارة كل سماته!.

خاتمة

عرضنا نظرية أرسطو عن الطاغية بالتفصيل لأهميتها، فقد ترددت عند كثير من الفلاسفة والمفكرين السياسيين في الفكر الأوروبي بعد ذلك. ولقد سقنا كثيرًا من النصوص الأرسطية لأنها أبلغ من أي حديث، فنحن أمام فيلسوف خبر الطغيان، سواء كان طغيان الفرد أو الجماعة، حتى إنه هرب من أثينا، بعد موت الإسكندر، عندما اضطربت المدينة، وسادتها موجة عاتية من المد الشعبي الذي سيطرت عليه الدهماء، قائلًا عبارته الشهيرة: «إنني لن أسمح لأثينا أن ترتكب الجريمة نفسها مرتين في حق الفلسفة!» مشيرًا إلى إعدام الديمقراطية الأثينية لشيخ فلاسفة أثينا سقراط، وهي ديمقراطية يعتبرها أرسطو - كما اعتبرها أستاذة من قبل - ضربًا من طغيان الدهماء، واستبداد العامة!.

كذلك فإننا نجد أن أرسطو وصف الطاغية وصفًا دقيقًا مفرقًا بينه وبين النظام الملكي، وهي تفرقة ظل يرددها الملوك لاسيما ملوك إنجلترا - كما لاحظنا من قبل - بعد ذلك بما يقرب من عشرين قرنًا!: الطاغية يعمل لصالحه الخاص والملك يعمل لصالح الجميع!.

كما أن أرسطو وصف «الطغيان الشرقي» بأنه النموذج الحقيقي للطغيان، وهو أيضًا وصف ظل يتكرر منذ عصر أرسطو حتى يومنا الراهن! حتى إن

الأوروبيين عندما«يسبون» ملكًا أو حكمًا لاستبداده يصفونه بأنه أقرب إلى الطاغية الشرقي!. فالطاغية الشرقي «الشهير» يعامل المواطنين معاملة السيد للعبيد، وها هنا نجد أصل الفكرة الهيجلية التي تقول إن الشرقيين كانوا جميعًا عبيدًا للحاكم الذي ظل هو وحده «الرجل الحر» في الدولة!.

والغريب أن أرسطو أرسل إلى تلميذه الإسكندر الأكبر رسالة ينصحه فيها بمعاملة اليونانيين كقائد، وأن يعامل الشرقيين معاملة السيد. لأنهم بطبيعتهم عبيد![1].

وأود أخيرًا أن أسوق ثلاث ملاحظات:

الأولى: أن القول إن الطاغية يعمل لصالحه الخاص، ينبغي أن يفهم فهمًا مرنًا. فقد يعمل الطاغية في فترة من فترات التاريخ لصالحه الخاص بالمعني الضيق للكلمة، أعني لمتعة الحسية أو لجمع المال أو لإشباع شهواته، للخمور للنساء.. إلخ. وقد مر بنا طغاة في تاريخنا الوسيط من هذا القبيل على نحو ما سنرى بعد قليل.

وقد لا يميل الطاغية إلى شيء من المتع الحسية، فيظهر بمظهر من يصرف كل اهتمامه وعنايته إلى الصالح العام,ولا يظهر بمظهر المبذر أو من ينفق نفقات طائلة تشق على سواد الناس، وتثير سخطهم لاسيما إذا ما كانت الأموال تجمع من الطبقات الكادحة، وكان على الطاغية أن يقدم كشف حساب عن إيرادات الدولة ومصروفاتها.وهو ما قام به أكثر من طاغية

(1) قارن مثلًا ترجمة أرنست باركر لكتاب السياسة لأرسطو ص388، وانظر نص الرسالة في مجموعة مؤلفات أرسطو المجلد الثاني ص2460 من نشرة بارنز 1985.

بالفعـل. فهو في هذه الحال سـوف يظهر بمظهر المدبـر لا الطاغية، وهو مع ذلـك لن يخشي أن تعوزه الأمـوال مادام قابضًا على زمام الأمور، والأفضل أن يوظـف الأمـوال بدلاً من تركها ثروات مكدسـة، وبذلـك يكون الحراس، والأعوان، أقل شهوة للمال والسلطة[1].

كذلـك ينبغي على الطاغية أن يظهـر، وهو يجمع الضرائب، بمظهر من يتـصرف للصالـح العام، فهو لا يجمـع الضرائب إلا من أجـل مصلحة عامة كالتجهيـز للحرب مثلًا، وهو لا بد أن يظهر بمظهر الحارس، والخازن للثروة العامـة،لا لثروتـه الخاصـة!، وعلى الطاغيـة أن يكون في مثل هذا السـلوك الشـخصي، شـجاعًا في غير غلظة!، بحيـث يبعث الرهبـة في نفوس كل من يتقدمـون للقائـه، دون أن يبـث الرعـب في قلوبهم، وذلك هـدف ليس من السهل تحقيقه ما لم يحترمه الناس![2].

أما فيما يتعلق بشـأن المتع الحسية فإن عليه أن يسلك سلوكا يتناقض مع سـلوك الطغاة المعاصرين لنا في أيامنا هذه، والذين قد لا يشـبعون من المتع الحسية لو استمروا يغترفون منها أيامًا ولياليَ. إن عليه، على العكس أن يسلك سـلوكًا معتدلًا، بل إن عليـه أن يظهر بمظهر الرجل الـذي يتجنب الملذات، المستيقظ للصالح العام، حتى لا يكون عرضة للازدراء ثم الاغتيال[3].

وباختصار يبدو أن أرسطو، في هذه الطريقة الثانية، يتحدث عما سمي في العـصر القديم بـ «الطاغية الصالح» أو الخير، وهو نفسـه الذي سـمى في

(1) Aristotle, Politcs, 1314 - B .
(2) Ibid.
(3) Ibid.

العصر الحديث بالمستبد العادل، وهو حاكم ينفرد بالحكم لكنه لا يهتم إلا بالصالح العام، ولا يبدد أموال الدولة على ملذات أو يسرف في رشوة حرسه الخاص وهو بذلك يقترب من الملك الصالح.

و إن كان أرنست باركر يرى أن أرسطو هنا يستبق نصائح مكيافللي، و يقدم نصائح سياسية «لأميره الجديد» بطريقة واقعية. غير أن نصيحته تختلف اختلافًا أساسيًّا عن نصائح مكيافللي. من حيث إنه يدعو الأمير الجديد أن يكون «عقل الدولة»، وأن يكون ملكًا و إنسانًا، أو على الأقل أن يلعب دور الملك والإنسان![1].

لكن مفهوم هذا «الطاغية الصالح» قد يتسع: فهتلر وموسوليني، وستالين في الغرب، وكذلك سوكارنو وعبد الناصر، وصدام في الشرق ليس من الضروري أن يكون طغيانهم من أجل الشراب والنساء والمتع الحسية، بل قد تكون لهم أهداف أخرى: بناء إمبراطورية، السيطرة على شعوب العالم، نشر فكرة بالقوة، التفرد بالحكم في جميع هذه الحالات، والتشبه بالله، في صفة من صفاته: وهي «ألا يسأل عما يفعل!!».

الثانية: أن المعيار الذي يميز حكم الطاغية هو انعدام الرأي الآخر، ولهذا فإن جميع أنظمة الحكم غير الديمقراطية هي أنظمة طغيان أو استبداد بطريقة أو بأخرى، ولهذا كرهت الفاشية النظم الديمقراطية كراهية شديدة !، إن المجتمع الذي يرتبط فيه الشعب بالزعيم القائد الملهم بحبل سري يتنفس كلما تنفس شهيقًا وزفيرًا هو مجتمع يحكمه طاغية بغض النظر

(1)قارن ترجمة سير أرنست باركر لكتاب السياسية لأرسطو وتعليقه على النص ص247حاشية رقم1.

عما يفعل!، فليست العبرة بما قدمه الحاكم الملهم من أعمال مجيدة، فقد يبني السدود و يقيم الجسور، و ينشئ المصانع، لكنه في النهاية يقتل الإنسان!، يدوس كرامته وقيمه ووجوده كإنسان!إنه يدمر «روح المواطن» - كما قال أرسطو - بحق - ليحيل المجتمع إلى مجموعة من النعاج تسهل قيادتها!!.

الثالثة: ما يقوله أرسطو من أن الشرقيين لديهم طبيعة العبيد، وأنهم خلقوا عبيدًا، هي الفكرة نفسها التي كررها هيجل بعد ذلك عن الشرق عمومًا والصينيين خصوصًا، عندما قال إن الشعب الصيني لديه عن نفسه أسوأ الأفكار، فهو يعتقد أنه لم يخلق إلا ليجر عربة الإمبراطور!!.

هذه الفكرة تحتاج في الواقع إلى مناقشة: لأنها تتضمن «مبالغة شديدة»، و إن كان سلوك الشرقي المتدني يعطي المفكرين العنصريين الفرصة لوصفه بأحط الصفات، وسوف نعود إلى مناقشة هذه الفكرة في الفصل الأخير من هذا الكتاب